الآن... وَقدْ؟

حسن عبدالله الشرفي

الآن.. قلت الآن أَرْفَعُ رأسَها
وأديرُ كأسي للنجوم وكأسَهَا
الآن أدخُلُ بُرجَهَا العالي، ولي
في كلِّ ركنٍ ما يطيِّب نفْسَهَا
الآن أحملُها إلى غدِها، إلى
زمنٍ بأعيُنِهِ يعانق عُرسَهَا

○ ○ ○ ○

يا كائناً، الوصل في نفسي، وفي
نفس الذي ما كان إلاّ غرسَهَا
أنا من «عيون العاصميّة» قادمٌ
أُزجي أهلّتَهَا وأحضنُ شمسَهَا
وأقول يا بيت الأحبّة إنني
عن ظهر قلبك أنتَ أحفظُ درسَهَا
بيت الذي أعني، وفيه حكايةٌ
بأنامل المعنى تُناوبُ لمسَهَا

حاولت جهدي أن تلوح طليقةً
لكنها ألفَتْ بقلبي حبسَهَا

وأنا المعنّى بالحكايات التي
وَقَفَتْ على خُضر المراعي هجسَهَا
عادت بي الذكرى، وللذكرى فمٌ
بمباسم النجوى يُقبِّل «سَلْسَهَا

○ ○ ○ ○

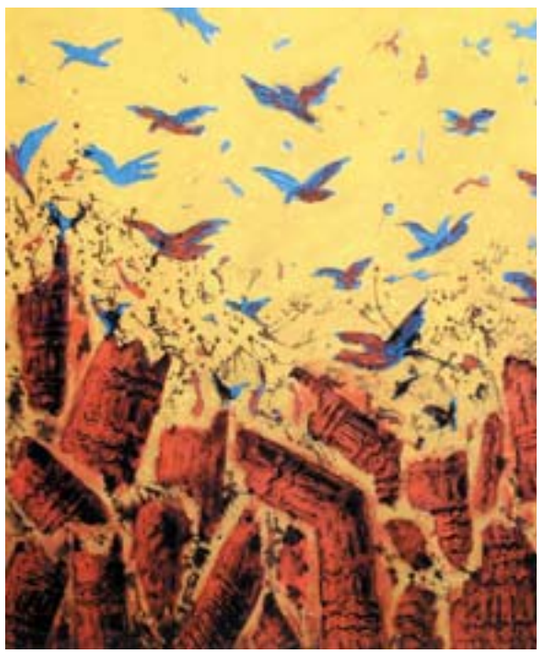

ويمرُّ بي سرب المها فيعيدني
لزمانه، ويصيح بي «يا قيسَهَا»
أرأيت كم كانت هناك شجيّةٌ؟
كم كانت الصبوات تملأ حِسّهَا؟
ظلّت هنا وهناك، لا صنعا حَكَتْ
عنها، ولا شمسان حاول مسّهَا
أرأيت كم كانت كأيّة نجمةٍ
نَسِيَتْ بمبزغها المراهق همسَهَا

○ ○ ○ ○

الآن.. حيث الآن أصبح شاغراً
أعطيتُ باري دندناتي قوسَهَا
وأتيتُ بي منها، إلى أيّامِهَا
لترى «بعين المحبشيّة» أمسَهَا
كم قلتُ للدنيا هنا بيت الذي
ربّى سعادتَهَا وربّى أُنسَهَا
وهنا التي في كل عرس محبّةٍ
حنّتْ بأنفاس الأقاحي خمسَهَا

18أكتوبر2012 م

أيها الشعر اسأل نفسك لما كل هذا العناء

زياد السالمي

● أضحيت مرتبكاً ولا أدري أكنت أستحق ذلك إن كان لابد سأضحكٍ ملء الوجود سأنسى وأترك لليل متسعاً كي يتنفس كيفٍ يشاء سأصمت حتى تصير الرياح رمادا سأطفئ مصباحي ولن أنام كما ينام الجبناء بعد عشائهم الأخير من حلمي سأقول أخيراً لك الحمد ياالله فهبني قليلاً من حنانك يكفي أن أنظر إلى براءتي وأراك فيها سوى بالقصيدة لم أكن طامحاً أو ساعياً لشيءٍ ، هكذا مازلت – وسأظل – علىً هذا المبدأ من صباي

أذكر في الصف الثاني من المرحلة الإعدادية كما كان الوصف التعليمي آنذاك أي « الثامن من التعليم الأساسي « الآن عندما كرمني مدرسي للغة العربية الأستاذ صبري ذو الجنسية السودانية لمحاولتي الأولى التي ألقيتها في إحدى النشاطات المدرسية بنصف علبة بسكويت من يومها وأنا الفاشل في كل شيءٍ في اللعب مع الأطفال في إكمالٍ الواجبات المنزلية التي كان مدرسونا أكثر كرماً علينا بها في العلامات كذلك....

في إطاعة والديّ أيضاً إما بالذهاب لإحضار متطلبات الأسرة من البقال أو السوق ...، أو إحضار الماء من البئر نظراً لعدم وجود مشروع مياه في القرية بسبب تسلط شيخها ونهبه للموازنة المحددة لإقامته ومن ثم تسخيره لمزرعته واستثماره للمزارعين الذين يملكون مزارع مجاورة له ...

توالى الفشل بعد أن اخترت في الدراسة الثانوية القسم الأدبي بدلاً من القسم العلمي على الرغم من أنني كنت أفضل الطلاب تفوقاً في المواد العلمية ..

من ثم المرحلة الجامعية لكن هذه المرة ليس لي منزلٌ آوي إليه إنما قضيتها في السكن الجامعي بالنسبة لها كانت الأمتع والأشقى في نفس الوقت

ظروف الأسرة صعبةٌ إلى حدّ ما بالمبلغ الزهيد الذي كان يوفره لي من قوته اليومي أخي الأكبر تقشفت قدر المستطاع إذ قننت نفسي على وجبةٍ واحدة في اليوم كي أوفر من مصروفي لشراء جريدة أو إصدارٍ دوري أو مجلة ثقافية مستغنياً عن ذلك بمضغ سيجارة في الصباح وأخرى في المساء بهما أشغل نفسي عن الطعامٍ ومن الضروري أن أسرد حدثاً وقع في المستوى الرابع أثناء الامتحانات حيث قمت بشراء سندوتشين « بطاط مقلي « قبل الظهيرة كوجبة إفطارٍ وغداء.

هل تدرك أيها الشعر ماذا أصابني ..؟ لقدٍ أصبت بعسر هضم دخلت قاعة الامتحان وبدلاً من أفكر بدرجةٍ تنفعني في المستقبل فكرت بالحصول على درجة نجاح والعودة إلى الغرفة أتألم ..

لم أفكر عندها بالذهاب إلى العيادة أو إلى الصيدلية لشراء حبوب هضم – الدواء لم يكن من ضمن المتاح – بل لم يكن من ضمن المسموح – نظراً لشحة المصروف المخصص ليس كل هذا فحسب الذي كنت أعانيه كوني أحببتك وأحببت فيك القراءة ..!

كيف لا وأنا ما استطعت شراء الكتب المقررةٍ واكتفيت باستعارتها من زملاء الدراسة معتمداً في الأخير على مخيلتي إلى ذلك دفع الرسوم دائماً قبل الاختبار باسبوعٍ

جميلةٌ تلك المرحلة بمرارتها سأكتفي عند هذا الحد

أعانني الله على تجاوزها بالأربع السنواتِ المقررة ليس بمجهودي كما وضحت إنما فضلٌ ممن يُسري اللطف عند الضعف والحمدلله مرت الأيام وأنا أبحث عن عملٍ استمرت تلك الفترة قرابة ثلاث سنوات وبتوفيقه تعاقدت مع وزارة العدل مدة خمس سنوات هي الأصعب والأنكى في حياتي حيث أصبحت منتجاً مما ينبغي المساعدة على إعانة الأسرة الكريمة فيما أنت لا تقبل لك شريكاً في الحياة أصبحت بين سندياتك ومطرقة الظروف كنتَ عزائي الصديقٍ والحبيب والأهل أشكرك أنك لم تخذلني أبداً «طمووووحا :» على الرغم من أنني متهمٌ بك

– والداي يقولان : ياولدي الشعر ما يأكل عيش

– إخوتي كذلك : اكمل دراستك واترك الشعر الشعر ضياع

– أصدقائي يهزأون : دور لك عمل ينفعك

– زوجتي وإن كانت أقل الضرر إلا أنها عانت معي وهذا ماعانيته

– طفلاي لم تدع لهما متسعاً من الوقت بل كنت سبباً في تقصيري في القيام بواجباتي المعنوية والمادية تجاههما «كأب»

حتى عمري لم يسلمً منك ؛ الكل ينظر إليك بأنك مهنة الفاشلين لكنني لم أبالٍ ساعدني عليهم كثرة شرودي وتأملي لعلي أقطف فكرة تغدو زهرة أو أعصر غيمة تهمي عطراً أقصد شعراً ؛ كم عانيت منك سواءً في زيارة الأقارب أو حضور الحفلات أو النوم أو العمل أو النقاشات العابرة أو مع زوجتي أو مع أخواتي أو مع ولدي أو مع إخوتي أو مع والدي أو مع أو مع أومع ....إلخ

ذلك لأنك في وطني ليس مرحبٌ بك من ذكرتهم لا يرون سوى الجانب المادي من الحياة بتفاوت ؛ أجبني أيها الشعر : هل بعد كل هذا العناء أقف قاب قوسين أو أدنى من دحض كلٍ ذلك القلق حائراً أمام شاعرٍ قد نتقاطع كثيراً في كل ماسلف ...؟

هل أستطيع بك دحض كل نظراتهم إلي كشاعر أي حتى يرى إليك كلٍ من لامني على كتابتك أنك آتيت أكلك عيشاً كريماً غير مشتبهٍ به أنك أكبر منهم جميعاً أنك أكبر أكبر

....

محطاتٌ كثيرة ومواقف واجهتني كنت فيهاٍ متلبساً بك مكتشفاً خلالها أنني واهمٌ جداً ببعض من عقدت عليهم يوماً أملاً قبلها لم أعرف أن الذهب قد يصير فحماً أو أنه أصلاً فحمٌ ليس إلا بعدها ياليتني ما وضعت في مثل هذه المواقف كنت أتمنى أن أظل على وهمي وحسبي به تعللاً مكتفياً بأن الأدب موقف ومطمئناً على أنك صاحب الكلمة الفصل في ذلك غير أن كفي لم ترتعش بل أكثر من أي وقتٍ مضى زادت تشبثاً بك فلما كل هذا العناء ..؟

يعلم الله أنني أحمده بك في غنى عن المادة ولا أريد شيئاً سوى وفائك معي مثل وفائي لك أن تبادلني الموقف ذاته الذي أكنه وأجسده أن تعينني على إزاحة القلق الذي تواجهه القصيدةٍ أن ألقي بسخطك في وجوه القلق المتباينة قائلاً لها : أنها واهمةٌ ؛ أن أصبّ جام غضبك رداً على الساحر ممن كان يعدني ويضربٍ « تاخ تاخ تاخ « يده على صدره زمانا : انجلت الغشاوة عن العين مفازتي هناك من هو أولى بالشعر وأهله منك هناك الشعر وكفى – لكن كيف سيدرك غضب ردك إن لم يكن بطريقته – أريد أن تقول لأمي بفهمها البسيط والمحبذ : قد اثمرت الليالي تلك التي كنت ترينٍ طفلك يسهرها مع الأوراق حتى الصباح مرهقاً روحه وجسده فوق طاقتيهما وإن استمر الأمرٍ إلى أيام آنها أرأيتي يا أماه لم يكن بي فاشلاولك أن تفخري الآن

رجاءً لا تخذلني دعني أقل بك انتصرنا معاً على السياسة ، أنك لم تكن هزيمةً كما يصفك الساخرون

أما أنا كشاعرٍ حلمه أنت وعزاؤه قولك الكريم لقد فزت بي يا زياد............ وحسبنا الله ونعم الوكيل

كفى الدهر أنّا ما اكتفينا بذكره
نغني زماناً : يازمانا كدهره
مسافات ميلادٍ تضيءُ وتنثني
مساءً تمادى في تعاقب فجره
بلادٌ كمنفىً .. موعدٌ مثل وحشة
كأن الهوى راض بأشواك زهره
كأن متاهات المكيدة دللت
عن السرِّ فيمن رام ظلمة قبره
أدارت رحاها بسمةً بعد دمعة
مجاذيف آتٍ كسّرتْ ريحٍ ذرّه
رأينا بها خيط النّجاة إشارةً
تهادى عليها النبل لحظة نهره
كفى حالنا بالله نمشي تيمّناً
ولا نبتغي إلا إطاعة أمره
تميل إلينا الامنيات تأوّداً
بطرفة عين من رحابة صدره
وكنا وكان الشعرَ أكثر راحة
نشاهد رغم الليل رايةً نصره
ترفرف ... فيما الغيم يروي : أننا
شربنا وعن مجدٍ لآليء قطره

تحت شجرة النسيان

■ أمضت الكاتبة البريطانية الكسندرا فيولر، شطرا كبيرا من حياتها في القارّة الإفريقية التي وصلتها بعد ثلاث سنوات من ولادتها، مع والدها ووالدتها. وبعد أن قدّمت عملا نال شهرة كبيرة، تحت عنوان «دموع الحجر»، روت فيه سنوات طفولتها في زمبابوي حاليا، ها هي تعود في كتابها الأخير، إلى الحديث عن إفريقيا التي أحبتها. وتتعرّض لها عبر الحديث عن سيرة حياة أمّها وأسرتها، والتي كما تقول، لا يمكن نسيانها،. وعنوان الكتاب الجديد هو: « تحت شجرة النسيان».

تشكل أم المؤلفة، حجر الزاوية في هذا البحث، وذلك مثلما كانت تشكل مركز أسرتها. والصفة الأساسية التي تؤكد الابنة عليها، في شخصية والدتها، هي الشجاعة. وتشير إلى أنها كانت تريد دعوتها دائما، باسم «نيكولا فيولر من إفريقيا الوسطى».

إنها من مواليد سكوتلندة من أسرة ريفية جبلية، ولكنها ترعرعت في كينيا، وسط أشعة الشمس الاستوائية الباهرة. وتصفها المؤلفة ـ الابنة، بأنها كانت تحمل في صدرها، القيم الإفريقية الأصلية، وعلى رأسها : الولاء والوفاء لرابطة الدم، التعلّق الشديد بالأرض، القناعة التامّة بأن وجود الحيوانات يصبّ في مصلحة الإنسان.

في البداية يتعرّف القارئ على نيكولا– الأم، عندما كانت طفلة مشاغبة، في كينيا .ثمّ يتعرّف عليها شابة تمضي وقتها مع تيم فيولر، الذي أحبته، فتزوجا ليشكلا معا، أسرة واحدة عرفت السعادة لسنوات طويلة. ولكن تاريخ الأسرة، يأتي في سياق فترة كان فيها نجم الإمبراطورية البريطانية، بصدد الأفول والتلاشي.

وتلك الإمبراطورية التي كانت أثارت لديهما سابقا، الكثير من الحماس. وبعد سنوات السعادة، حلّت فترة تكوّنت فيها المآسي والاضطرابات، إلى درجة أن الأسرة وجدت نفسها أمام عالم تكاد لا تستطيع التعرّف عليه.

انتقل تيم ونيكولا في ربوع القارّة الإفريقية، بحثا عن مواقع إقامة جديدة يمكنهما فيها، أن يؤسسا للعيش بسلام. وهكذا انتقلا من كينيا إلى روديسيا، ثم زامبيا، وذلك مع تمضية بعض الإجازات القصيرة في انجلترا. وعرفت المنطقة، اعتبارا من بداية عقد الثمانينات في القرن الماضي، اضطرابات اجتماعية وحروبا أهلية، حيث عرفت الأسرة حالة من البؤس، لاحقتها في الأماكن التي حلّت بها، بينما كانت تخوض معركة الحياة من أجل الحفاظ على طفليها، وعلى أرضها، وعلى سلامة الصحة النفسية والعقلية لأفرادها.

إن الموضوع الجوهري لهذا الكتاب، هو إذن تدوين التاريخ الإفريقي لأسرة المؤلفة. وذلك من زاوية، أن ذلك التاريخ يحتوي على روابط العلاقة بين المستوطنين الانجليز والأرض الإفريقية التي استأثروا بها، وأبعدوا عنها بذلك، الأفارقة الأصليين.

ولكنه يحتوي أيضا على ملامح نهايات الظاهرة الاستعمارية والتخلي بالتالي عن كل شيء في إفريقيا، بالنسبة للبيض الذين استوطنوها، أي الأرض والهوية ومشاريع الحياة كلها. السؤال الكبير الذي كان يتردد دائما على ذهن الأم، تلخصه المؤلفة بما معناه: «من أنت؟» .

وهذا على الرغم، من أن مثل هذه الأسئلة، ليست من نوع الأسئلة التي يمكن طرحها بسهولة على النفس. وما يتم تأكيده هو أن الأم لم تكن ترى نفسها أبدا، بمثابة «سكوتلندية»، رغم ولادتها في سكوتلندة، وذلك أنه كان من العسير عليها العيش فيها، حيث لا يحق للإنسان أن يمتلك بندقية، بينما كانت البندقية، أحد معطيات الهوية بالنسبة لمن كان يعيش في إفريقيا، بصفته غريبا عن أرضها وعن أبنائها.

وعليه الدفاع عن نفسه. ومن أجل معرفة الكثير من أسرار حياة أمها، لجأت المؤلفة إلى القيام بسلسلة من اللقاءات، وجمع الشهادات، على مدى عقد كامل في سكوتلندة، والتي تعود إليها أصول الأم، وفي كينيا، حيث ترعرعت، وفي روديسيا السابقة زمبابوي اليوم– حيث توجد الأمكنة الحقيقية التي ستغدو أمكنة «شجرة النسيان».

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه من بين الذين جمعت شهاداتهم: أمها وأبيها. ومما تعلقه على شهادة أمها، قولها: «عند سماعي لما قالته، أدركت عندها أنها عاشت حياة مدهشة، رومانسية. حياة على غرار ما كتبته كارين بليكسن في روايتها التي تحمل عنوان: (المزرعة الإفريقية)». كما تجري الإشارة إلى أن والدة المؤلفة كانت شديدة الإعجاب بالروائية كارين بليكسن.

والإطار الذي ترسمه لمسار أسرتها، هي أن أمّها كانت شغوفة بأرضها، الإفريقية، وان أباها كان شغوفا بأمّها. وهي تحاول، في الوقت نفسه، المحافظة على الحياد التام، بعيدا عن العواطف، وذلك كأنها ليست ابنتها.

وتؤكّد أن أسرتها استفادت كثيرا من الامتيازات التي كانت تتمتع بها «الأقلية البيضاء»، الاستعمارية، في إفريقيا السوداء، وذلك مع ما يعني الامر من عنف، والتماشي مع قناعة استعمارية كانت أسرتها بمثابة تعبير صارخ عنها، برأي المؤلف، ومفادها فكرة أميركية: «5 بالمائة من سكان العالم، تريد امتلاك سلطة القرار بمصير بقية الآخرين».

ويمثل الكتاب، في أحد أوجهه الأساسية، نوعا من البحث في الهوية المفقودة، لأولئك الذين عاشوا غالبية حياتهم، كـ«مستعمرين» في بلاد الآخرين.

ومن ما تقوله المؤلفة: «أنا موجودة حيث قصص حياتي. وأنا أتيت من حيث أتت، وهي موجودة في كل مكان». ووصولا إلى القول: «منزلي هو كتابي».

أما موطن أمّ المؤلفة الحقيقي، فتجده الابنة في : «تلك المزارع الإفريقية»، التي انتقلت بينها.

الكتاب: ساعات تحت شجرة النسيان
تأليف: الكسندرا فيولر
الناشر: سيمون وشستر نيويورك 2011
الصفحات: 256 صفحة
القطع: المتوسط